سردنة الواقعة التاريخية
قراءة في (رواية السيف والكلمة) لعماد الدين خليل

أ.م.د. علي أحمد محمد العبيدي*

تاريخ استلام البحث ٢٠١٤/٥/١٨
تاريخ قبول النشر ٢٠١٧/١٢/١٨

ملخص البحث:

يحيل مصطلح السردنة الى إخضاع (الموضوع) الى السردية. إذ تقوم واقعة الموضوع بالاستناد إلى ما هو ثابت في الحكائي المتغير، فموضوعة الواقعة التاريخية بوصفها حاضنة للتاريخ، هي حكائية مجردة وغير متحولة الى سرد، ولكنها تشتغل بفعل الروي من خلال محاولة إخضاع الواقعة من فضاء التاريخ الى فضاء السرد بضخ مزايا سردية جديدة في أصل الحكاية التاريخية، ولعلها تفكك ثبات الحكاية التاريخية وتعيدها الى فضاء جديد على وفق التصورات والمرجعيات والأيدولوجيات والخلفيات الاجتماعية للراوي.

Historical narrative of the incident Read the novel (the sword and the word) to Imad Eddin Khalil

Assit. Prof. Ali Ahmed M. Al-Obayidy

Abstract:

References to the term Alsrdna subject) the subject (to the narrative .It is located the subject on the basis of what is fixed in Gaii variable ،Vemoduah incident history as the incubator of history ،is Gaúah abstract and non-mutant to the narrative ،but it is operated by McElroy by trying to subdue the incident of space history to the space narrative pump advantages of new narrative in the origin of the story historically ،perhaps the disintegration of the stability of the historical story and bring them back to a new space on the perceptions and in accordance with the terms of reference and the ideologies and social backgrounds of the narrator

* استاذ مساعد، قسم الدراسات الادبية والتوثيق، مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل.

المقدمة:ـ

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في تحديد إخضاعات نص الواقعة التاريخية إلى المعطى السردي.

هدف البحث:

يهدف البحث الى قراءة (إخضاع نص الواقعة التاريخية ضمن المعطى السردي).

أهمية البحث:

يهتم البحث بتسليط الضوء على إخضاع نص الواقعة التاريخية ضمن المعطى السردي.

حدود البحث:

تحدد البحث بقراءة رواية السيف والكلمة لعماد الدين خليل

هيكلية البحث:

التمهيد:

- السردنة: مقاربة تأسيسية.
- علائقية الرواية والتاريخ.
- عماد الدين خليل والسيف والكلمة.

المبحث الأول: سردنة العتبة.

المبحث الثاني: سردنة الواقعة.

التمهيد: **السردنة**: **مقاربة تأسيسية**.

يحيل مصطلح السردنة الى إخضاع (الموضوع) الى السردية. إذ تقوم واقعة الموضوع بالاستناد إلى ما هو ثابت في الحكائي المتغير، فموضوعة الواقعة التاريخية بوصفها حاضنة للتاريخ، هي حكائية مجردة وغير متحولة الى سرد، ولكنها تشتغل بفعل الروي من خلال محاولة إخضاع الواقعة من فضاء التاريخ الى فضاء السرد بضخ مزايا سردية جديدة في أصل الحكاية التاريخية، ولعلها تفكك ثبات الحكاية التاريخية وتعيدها الى فضاء جديد على وفق التصورات والمرجعيات والأيدولوجيات والخلفيات الاجتماعية للراوي.

- **علائقية الرواية والتاريخ:**

التاريخ خط لا يقبل العودة إلى الوراء، ولعله يقوم على فعل السرد بما يحتويه من وصف للأحداث والشخصيات، فضلاً عما تشمله من أزمنة وأمكنة جرت فيها، ولعل فعل السرد يشتغل

هنا على العلائقية التي تربط بين المفهومين، والتي تثير بدورها سؤالاً يتعلق بأي منهما ينتج الآخر، أو أياً منهما الأسبق، بيد أن هذا التماثل بين أحداث العمل الأدبي والأحداث التاريخية، يُبقي التاريخ ضمن دائرة السرد، فالعلاقة بين الرواية والتاريخ (عمل) يقوم على التخييل، لكن جوهرها لا يمنعها من أن تتخذ من الواقع المتحقق مادة حكائية لها، إذ تقوم في مظهرها على المزاوجة بين التخييلي والمتحقق.[١] وبالخصوص المتحقق الماضوي. وهو ما سيطرح مفهوم الرواية ذاتها موضع سؤال كمحاولة للبحث عن صياغة جديدة لها، خاصة إذا استحضرنا كون إقحام الحدث المتحقق في الرواية يتم عبر نصوص تاريخية قديمة توظفها الرواية وفق علاقات التفاعل المختلفة التي تقيمها معها. كما إن المزاوجة بين المتحقق والمتخيل تقود الرواية لتلامس أسئلة أخرى تتحدد معها كمحاولة للوعي بذاتها، من قبيل السؤال حول الحقيقة الحكائية وحول علاقة الرواية بالواقع أو علاقتها بالتاريخ[٢] وهنا يطرح مجموعة تساؤلات منها: لماذا العودة إلى الماضي للتفاعل مع التاريخ؟ وكيف تتعامل معه الرواية لتحوله إلى مادة حكائية دالة في واقع تداولها؟ كما إن طبيعة التاريخ العلمية والمعرفية لا تصل به إلى درجة ينفصل فيها عن الرواية بمظهرها الإبداعي. فبين التاريخ والرواية هامش مشترك، فهما معا يعتمدان على الحكي، أي أنهما محكيان. فالرواية، حسب ميشيل بوتور، شكل من أشكال القصة[٣]، وتتأتى عن فعل التحبيك، كما أن"صياغة الحبكة تميل الى تغليب حدود تقلبات التاريخ على الدلالات المباينة للأحداث المروية"[٤] ويتدخل الجنسان، في هذا المستوى، كشكلين من أشكال الحكي يتعامل فيها المؤرخ والروائي مع الحدث الذي تصنعه شخصية ما في الزمان والمكان. إن طبيعة تعامل الرواية والتاريخ مع الحكي، والغاية التي يتوخيانها منه تختلف بينهما. فالرواية لها طابع تخييلي، وحتى في أقصى حالات واقعيتها التي تحكي فيها عن واقع متحقق فإن المظهر التخييلي الذي يميزها أجناسيا يطفو على السطح، ويفرضه الاعتقاد بوجود مقصدية أخرى عند المبدع تتجاوز مجرد الحكي عن ذلك الواقع. فهي تعتمد على نوع من التوهيم بالواقعية والتحقق لأن الروائي "يقدم لنا حوادث شبيهة بالحوادث اليومية، مسبغا عليها أكثر ما يستطيع من مظاهر الحقيقة مما قد يصل إلى الخداع[٥] ويقترن الخداع الذي يمارسه الروائي بالتوهيم الذي يوقع فيه المتلقي بتحقق الأحداث المحكية، حيث يستند إلى قواعد الإدراك العادي للأشياء في صياغته لقصته المتخيلة، والتي يستقدمها كقصة واقعية أقرب ما تكون من الحوادث اليومية. وما يميزها عن

هذه الأخيرة هو افتقارها إلى مرجعية خارج النص الروائي يمكن لنا أن نعود إليها لنتثبت من تحققها الفعلي[٦]، وحتى في الحالة التي تحكي فيها الرواية عن أحداث واقعية ومتحققة، فإن مجرد الإتيان بها في قالب روائي يفرض على المتلقي تعاملا خاصا معها. فالرواية لا تحكي تلك الأحداث لمجرد الإخبار بها أو الإعلان عن تحققها. فللنص الروائي دائما مقصدية، تتجاوز في الغالب المادة الحكائية، وتصوغ نفسها عند المتلقي في سؤال من قبيل: ما الدلالة التي تنتجها الرواية في حكيها لهذه الأحداث المتحققة؟ وتكمن الأهمية الأجناسية لهذه المقصدية في أن غيابها يجرد النص من مظهره الإبداعي وينتقل به من جنس الكتابة الروائية إلى جنس كتابة أخرى.[٧] ومن هنا تأتي خصوصية الرواية، فمحكيها يخصص دائما هامشا للمتخيل حتى في أقصى درجات واقعيته. وتقودنا هذه المقارنة الأولية بين التاريخ والرواية إلى الوقوف عند أهمية المقصدية المؤسسة لكل منهما كعامل حاسم في التمييز بينهما. فالنص التاريخي، يدون الوقائع ويعيد صياغتها نصياً، وينقلها من المستوى الواقعي الى المستوى الفني، ومن هنا يكون من حق الباحث أن يتعامل مع النص التاريخي، بوصفه نصاً سردياً، يمتلك قوانين وأسساً، تتحكم بإنتاجه وتلقيه" فالمؤرخ يحول الحدث الى مادة تاريخية، عندما يضعه في تسلسل زماني معين"[٨]. كما أن التجربة البشرية لا تتميز ولا تتوضح إلا بالسرد حين تصاغ في حبكة معينة، لذا فالسرد يقيم علاقة جدلية مع الحياة والتاريخ، لأن السرد ينتج داخل الحياة، كما أن الحياة تنتج داخل السرد، ويمكننا القول بأن القصص تروى، إلا أنها تعاش على نحو متخيل. إن أشكال التعامل مع الماضي في الكتابة الإبداعية تختلف، لكنها تحرص على أمر أساسي هو ربط الماضي بالحاضر، والذي يتم عبر علاقات دلالية بين الواقعين قد تكون مبنية على التماثل أو التناقض. وهنا لا بد من التأكيد على أن أيا من شكلي التعامل ينطوي على رؤية إيديولوجية للواقع الحاضر.

عماد الدين خليل أديباً ومؤرخاً

من مواليد مدينة (الموصل) (١٩٤١م) تتوزع موهبته في ميادين عديدة؛ منها: تجلية التخصص، فضلاً عن الأنواع الأدبية الأخرى سرداً ونظماً، فهو شاعر، وروائي، ومسرحي، وكاتب مقالة، وخاطرة، ومؤلف في القضايا المعاصرة التي ترتبط بالإسلام والمسلمين من الناحية الحضارية.

حصل على البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية/ جامعة بغداد عام ١٩٦٢ ، والماجستير في التاريخ الإسلامي بدرجة جيد جدا من معهد الدراسات العليا بكلية الآداب/ جامعة بغداد عام ١٩٦٥، عن رسالته الموسومة بـــ (عماد الدين زنكي : ٤٨٧ ــ ٥٤١ هـــ / ١٠٩٤ ــ ١١٤٦ م)، والدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة عام ١٩٦٨، عن رسالته الموسومة (الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام : ٤٦٥ ــ ٨١٣ هـــ / ١٠٧٢ ــ ١٤١٠ م)

عمل مشرفاً على المكتبة المركزية لجامعة الموصل عام ١٩٦٨ عمل معيداً، فمدرّساً ، فأستاذاً مساعداً، في كلية آداب جامعة الموصل للأعوام ١٩٦٧-١٩٧٧ عمل باحثاً علمياً، ومديراً لقسم التراث، ومديراً لمكتبة المتحف الحضاري، في المؤسسة العامة للآثار والتراث ــ المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في الموصل للأعوام ١٩٧٧ ــ ١٩٨٧ حصل على الأستاذية عام ١٩٨٩، وعمل أستاذا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين في اربيل للأعوام ١٩٨٧ ــ ١٩٩٢ ، ثم في كلية تربية جامعة الموصل ١٩٩٢ ــ ٢٠٠٠ م ، فكلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي ، بالإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٠ ــ ٢٠٠٢ م ، فجامعة الزرقاء الأهلية ، الأردن ، عام ٢٠٠٣ م ، فكلية آداب جامعة الموصل ٢٠٠٣ ــ ٢٠٠٥ م التي أعارت خدماته لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك الأردن، إذ لا يزال يعمل هناك، كما شارك في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية من بينها :

(١) المؤتمر الأوّل للتعليم الجامعي ــ بغداد ــ العراق ــ ١٩٧١ .

(٢) المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية ــ الدوحة ــ قطر ــ ١٩٧٩ .

(٣) المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ــ عمان ــ الأردن ــ ١٩٨٠.

(٤) الندوة العالمية الثالثة للآثار والتراث ــ بغداد ــ العراق ــ ١٩٨١ .

(٥) ندوة حوار حول الأدب الإسلامي ــ المدينة المنورة ــ السعودية ــ ١٩٨٢ .

(٦) ندوة كتابة تاريخ الأمة الإسلامية ــ الزقازيق ــ مصر ــ ١٩٨٩ .

(٧) ندوة المنهاجية وإسلامية المعرفة ، أكسفورد ــ المملكة المتحدة ــ ١٩٩٠ .

(٨) الأسبوع الثقافي للمعهد العالمي وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ، عمان ــ الأردن ــ

١٩٩٢ .

(٩) المؤتمر العالمي الثاني حول سعيد النورسي وتجديد الفكر الإسلامي، اسطنبول ــ تركيا ــ ١٩٩٢ .

(١٠) ندوة مستقبل العالم الإسلامي الثقافي من خلال واقعه المعاصر ــ فاس ــ المغرب ــ ١٩٩٣ .

(١١) المؤتمر العالمي الثالث حول فكر سعيد النورسي ــ اسطنبول ــ تركيا ــ ١٩٩٥ .

(١٢) المؤتمر الثاني لجامعة الزرقاء الأهلية حول الأدب الإسلامي: الواقع والطموح ــ عمان ــ الأردن ــ ١٩٩٩ .

(١٣) الملتقى الدولي الثالث للأدب الإسلامي ــ أغادير ــ المغرب ــ ٢٠٠١ م.

(١٤) الملتقى الدولي الرابع للأدب الإسلامي ــ فاس ــ الغرب ــ ٢٠٠٤ م.

المبحث الأول: سردنة العتبة

(التاريخ كله معاصر)[٩] عبارة للفيلسوف الإيطالي بنيد بيتو كرتوشه يفتتح بها عماد الدين خليل عتبة روايته (السيف والكلمة)

وتنتهي عتبة الرواية بعبارة "بهذه الروح يكتب عماد الدين خليل هذه الرواية، التي في كل أجواءها تستمد من التاريخ ما يعين على قراءة حال العراق اليوم، الذي يتعرض مرة أخرى للغزو ولحب فتنة تهدد بأبشع الخراب"(١٠).

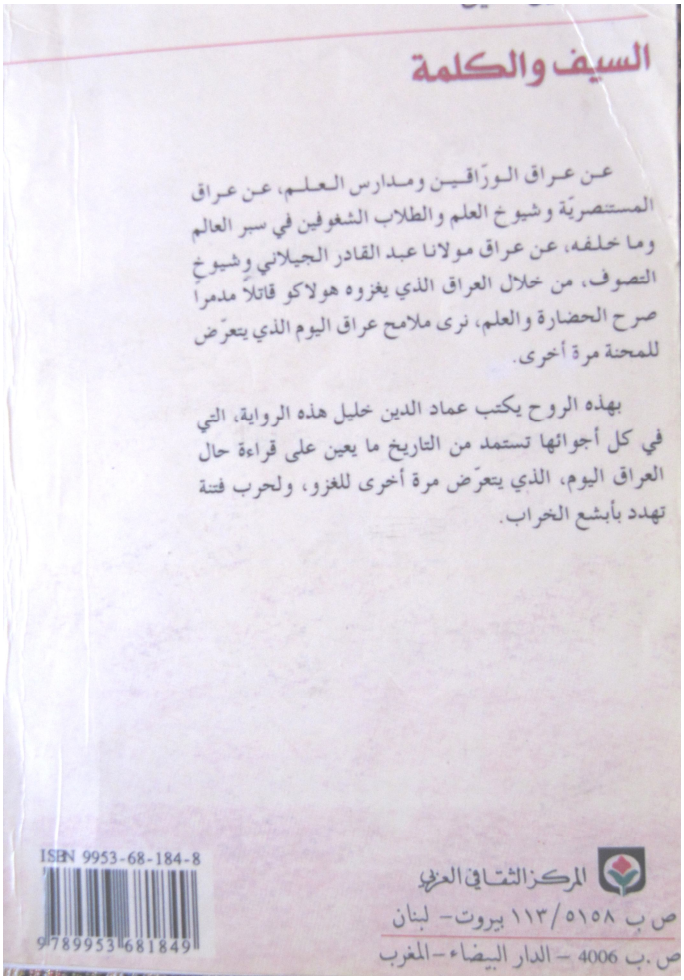

لقد سجلت الرواية من خلال عتبتها النصية سبقاً حقيقياً في التعبير عن محنة احتلال العراق على يد الغزاة الأمريكيين وحلفائهم في الغرب الاستعماري عام ٢٠٠٣م، من خلال استعادة ما جرى في الغزو المغولي الذي أسقط الخلافة الإسلامية في بغداد عام ٦٥٦هـ، على الرغم من أن الكاتب لم يشر بكلمة واحدة إلى الغزو الراهن، إلا أن كل سطر في الرواية يعلن عنه ويشير إليه، "**وكنت اقول في نفسي: اذا قدّر لهذه السلالة أن تنتصر نصراً نهائياً على عالم الاسلام، لا قدر الله، فمعنى ذلك أن البشرية مقبلة على انتكاسة يصعب تصورها حتى على ذوي العقول**

والالباب، وانه ربما سيشهد التاريخ سلالات اخرى ستمارس الدور نفسه وترجع بالإنسان عبر قنوات الدم والتحجر، والرغبة الآسرة في السيطرة والفناء، قروناً موغلة الى الوراء"[١١].

إن العنوان (السيف والكلمة)، والاقتباس الذي وضعه في مفتتح السرد للناقد الإيطالي (كروتشه): (التاريخ كله تاريخ معاصر)، يؤكدان على حضور الغزو الوحشي الجديد بأبعاده التي عرفها أهل بغداد في القرن السابع الهجري، مع الفارق في التعامل والأساليب المستخدمة.. فالسيف والكلمة، ثنائية توافقية تجمع بين ضدين (السيف) الذي يحيل الى القتل، و(الكلمة) التي تحيل الى التعليم، وبما أن الرواية برمتها قد تناولت الفترة الذهبية من العصر الإسلامي الذي انتشر به الورق والوراقين،(السيف للغزاة المغول، والكلمة للوراقين والمتعلمين في المدرسة المستنصرية) وهذه دعوة من الكاتب بتقديم مفردة السيف على الكلمة، فالأولى تحيل الى القوة، والتي تعني أن الحق المغتصب لايعود إلا بها، أما الثانية (الكلمة) التي تحيل الى التعليم كما ذكرنا ، فهي تحيل في سياق الخطاب أيضاً الى الصدقة ومحاسن الأخلاق، وهذا ما يدعوا إليه ديننا الحنيف بقوله (الكلمة الطيبة صدقة) فحقق عماد الدين خليل من خلال مفردتين تحمل معان مختلفة أو ضدية عن بعضهما، توافقاً خطابياً في المفهوم، ومجيء الرواية في السياق التاريخي كان أكثر نجاعة وتوفيقاً في معالجة الواقع الراهن، بل أكثر تأثيراً أيضاً! القوة والدعاية، لقد اختار الكاتب ثنائية (السيف والكلمة) مرتكزاً لإنشائه الروائي، انطلاقاً من أهميتها، بوصفها مقابلاً لما جرى في عصرنا من ثنائية (القوة/ والدعاية).

وتدور أحداث الرواية موزعة بين أبطالها الأربعة وهم (الوليد وحنان وعبد العزيز وسليمان) وقد قسم عماد الدين خليل روايته على هذه الأسماء الأربعة التي تناوبت عملية السرد ، وكانت تلك الأسماء بمثابة عتبات لعتبة الرواية (السيف والكلمة)، فقد جعلها تتحدث بضمير المتكلم والفعل المضارع، في إشارة لا تخفى على مضمون الرواية الذي يصف ما يجري من وقائع تبدأ من نهاية الرواية الدامية، حيث قُتل (سليمان) والد بطل الرواية (الوليد) بقطع رأسه من خلال وشاية من خطيب أخته (عبد العزيز) الذي انحاز إلى التتار الغزاة، وتماهى معهم في خيانة صريحة، وهذا ماقابله في التاريخ شخصية(ابن العلقمي) فقاموا باقتحام منزل (حنان) الخطيبة، وذبحوا والدها (سليمان)، وراحوا يبحثون عن شقيقها (الوليد) الذي ركب فرسه وفرّ من قبضتهم متجهاً إلى فلسطين،[١٢] وقد أخذ يحكي عن طريق الاسترجاع أو الارتداد الزمني، الأحداث منذ بدايتها، مصوّراً المكان والأصدقاء والناس والهول الذي صنعه المغول الغزاة حين

دخلوا بغداد بعد أن ذبحوا الخليفة، والمدافعين عنها، والناس في أرجائها المختلفة. تبدو أحداث الرواية مرتبطة بأمرين، الأول محاولة عبد العزيز خطبة (حنان) من خلال زياراته المتكررة لوالدها (سليمان) صاحب المكتبة أو (الورّاق) بلغة تلك الأيام، وكانت محلات الورّاقين ملتقى لكل المعنيّين بهموم العلم والمعرفة، وهم بحمد الله كثيرون، والأمر الآخر يرتبط بالأول، وهو الخوف من المجهول، أو الحديث عن غزو المغول وتوجههم نحو بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية!

إن الرواية من عنوانها..حكاية حرب السيف والكلمة! الوحشية والإنسانية.. البربرية والحضارة، رواية .. يعيش أبطالها في بغداد منتصف القرن الثالث عشر قُبيل سقوطها على يد المغول، وبُعيد الزحف المغولي على أحياءها ليتركها خراباً تفزعُ النفس من تفاصيله الموغلة في الوحشية، كما أنها تحكي لنا فترة الارتقاء العلمي والمعرفي من جهة.. إذْ كانت بغداد حينها منارة للعلم وأفقاً لا حدود له للبحث والمطالعة والاستزادة في شتى أنواع العلوم من شريعة وفلسفة ورياضيات وفلك. والرواية تتحدّث عن أحد نسّـــاخ الكتب في زمن ما قبل سقوط بغداد ومعاصرته لأحداث السّـــقوط، والرواية فيها الكثير من العبر والدروس لمن يقرأها بإمعان وتفكر.

المبحث الثاني: سردنة الواقعة

يميّز البعض بين التاريخ والرواية على أساس أن التاريخ ضرب من المحكيات ذات النزوع إلى الحقيقة، فيما السرد محكي تخييلي. ويترتب على هذا التمييز تمييز آخر بين واقعية التاريخ ولا واقعية التخييل الروائي. و "في النظرية التقليدية للأدب فإن الرواية والتاريخ نوعان مختلفان بصورة كلية، ويحتكمان إلى قدرات عقلية مختلفة لا تجتمع معاً"(١٣). وهو تمييز قديم ويعود إلى (شعرية) أرسطو التي ميّزت بين الشعر والتاريخ. إلا أن هذا التمييز لا ينفي المشتركات التي تجمع بين الرواية والتاريخ سواء على مستوى الشكل أم على مستوى الوظيفة. فهما يشتركان في شكل السرد أولاً، وفي العمق الزمني للتجربة البشرية ثانياً، وذلك من حيث إن التاريخ والرواية يسعيان إلى توضيح التجربة البشرية من خلال وضعها في صيغة سردية بحيث تظهر الأحداث ضمن مسار زمني مترابط وذي دلالة. أي مجموع التنسيقات والترتيبات التي تتحوّل من خلالها الأحداث المتناثرة والوقائع المتنافرة إلى حكاية منسجمة وذات معنى. فالتاريخ يدرك أو يتشكّل

بوصفه حكاية تتألف من أحداث وشخصيات ومواقف. وهذه الحكاية، أو هذا الترتيب والانتقاء المقصودين للوقائع ليس موجوداً في الأحداث الواقعية، وعلى المؤرخ أن يصوغ حبكة هذه الوقائع، كما أن عليه أن يسردن تاريخه بصياغته بطريقة معينة وبترتيب محدد بأن يضع حدثاً ما بوصفه سبباً وآخر بوصفه أثراً، وبأن ينتقي وقائع، ويغيّب أخرى. بمعنى آخر عليه أن يضع الأحداث المتناثرة والفاقدة للترابط في مسار حكائي معين بحيث تكون ذات حبكة تنطوي على الترابط والمعنى معاً.(١٤) وهذا مايقوم به الروائي أيضاً. من هذا المنطلق سعى عماد الدين خليل وهو يجمع بين هاتين الصفتين (المؤرخ والروائي) فعمله كمؤرخ لا يختلف عن عمله الروائي الذي يشتبك مع التاريخ، فسعى أمام مجموعة من الأحداث والوقائع والمواقف المتناثر والفاقدة للمعنى بحد ذاتها، وحاول أن يمنحها المعنى من خلال تحبيك هذه الأحداث والوقائع التي مرّت بها بغداد إبان الغزو المغولي لها، ووضعها ضمن مسار حكائي معين؛ وبهذه الطريقة اكتسب الحدث قيمته ودلالته من خلال وضعه بجوار أحداث ومواقف أخرى وفي مسار حكائي محدد، وهذا ماأطلقنا عليه بسردنة الوقائع التاريخية. ثمّ إن مايميّز تجربة (السيف والكلمة) ويمنحها فرادتها الخاصة هو اشتباكها سردياً بالتاريخ الإسلامي للأحداث التي عصفت ببغداد أثناء الاحتلال المغولي لها. تحتفى رواية (السيف والكلمة) من حيث هي امتداد زمني متواصل دون انقطاع، قادر على الصمود في وجه التحولات التي أدّت إلى تحولات مهمة في تصورنا لمفاهيم الهوية والأمة والأصالة التي واجهت الإحتلال." **قاومنا بضعة عشر يوماً بلياليها.. قتلنا أسراباً من الجراد المنهمر على اسوار بغداد بغير حساب..**"(١٥).

يتأطر المتن الحكائي في هذا العمل الروائي تاريخياً ضمن القرن السابع الهجري، وهي مرحلة تميزت بزحف المغول الى بغداد، ومن ثمّ احتلالها، حيث تكتب الرواية واقعاً عربياً إسلامياً مريضاً وتقرأ أسباب تداعيه وانهياره. " **يوم الهول كان مجيء المغول.. ورغم كل حساباتنا.. رغم كل محاولاتنا للرصد.. ماكنا نتوقع أن يكونوا بهذا الحجم الكبير.. ربع مليون سيف يتلمظ بشهية مخفية لشرب دم البغداديين.. وكأن عطش ستة قرون ونصف من عمر الخلافة يتمركز في لحظة واحدة، ويتحفز للإرتواء**"(١٦).

إن الواقعة التاريخية المتحققة ونسختها التاريخية الإخبارية، وما يرافقهما من أخيلة وحاجات اجتماعية ونفسية وسياسية خفية، تتبادلان دائمًا موقع المرجعية. لكن الأولى، التي تم

حدوثها في الواقع، لا تملك المقدرة على الانتقال إلى الوعي التاريخي إلا من طريق الذاكرة السردية المحكية. هكذا يتحدث عماد الدين خليل عن روايته السيف والكلمة ، وتأطيرها تاريخياً بقوله:" لقد تعامل "المؤرخ" مع الغزو المغولي من الخارج، وهو لا يتابع الدقائق والتفاصيل، ولا يحاول النفاذ إلى العمق الإنساني للواقعة التاريخية، وإنما يكتفي برسم الهياكل الخارجية لها، في حين نحن بحاجة إلى رؤية الفنان لكي نسبر انعكاسات الحدث على النفس البشرية في أزقة بغداد ودُورها وأحيائها ومساجدها وأسواقها وملاعبها ومكتباتها.. لقد حاولت الرواية أن تقدم انطباعاً مأساوياً للاجتياح المغولي لبغداد، وأن تومض –من وراء الحزن والانكسار– بسبل النهوض والخلاص"[١٧]. وكان من التحديات التي واجهتها الرواية ، بصورة عامة، القدرة على الاحتفاظ بالإثارة و التشويق و الإمساك بإنتباه القارئ على امتداد مساحة الفعل السردي. ولقد تمكن الكاتب من القيام بذلك على المستوى الفني من خلال اهتمامه بالتفاصيل و برسم ملامح الحدث السردي بكثير من العناية و التركيز على الجوانب التي أغفلت الإشارة إليها كتب التراث و التأريخ العربي الإسلامي. من خلال إن إبراز تفاصيل تتعلق بالأسواق والحارات البغدادية بأحيائها ودروبها وجسورها وأسواقها ومدارسها وملاعبها وحوانيتها، وقد ساعدت جميعها على بناء متخيل للحدث في ذهن القارئ بشفافية كبيرة.

الخاتمة:

- حاولت الرواية توظيف الغزو المغولي لبغداد من خلال تنامي الحدث عبر أربعة أصوات، وبضمائر متغايرة يغيب فيها الراوي تماماً معظم الأحيان.
- كسرت الرواية حاجز الزمن وتسلسله الرتيب، بما يماثل سيرورة الزمن الموضوعي في شكل تتابع أفقي، وهذا لم يمنع من رجوع السرد إلى الماضي، فهناك انقطاعات عديدة في سيرورة السرد المستقيم، وإسقاطه على الحاضر.
- حقق عماد الدين خليل من خلال مفردتين تحمل معان مختلفة أو ضدية عن بعضهما، توافقاً خطابياً في المفهوم، ومجيء الرواية في السياق التاريخي كان أكثر نجاعة وتوفيقاً في معالجة الواقع الراهن، بل أكثر تأثيراً أيضاً! القوة والدعاية، لقد اختار الكاتب ثنائية (السيف والكلمة) مرتكزاً لإنشائه الروائي، انطلاقاً من أهميتها، بوصفها مقابلاً لما جرى في عصرنا من ثنائية (القوة/ والدعاية).

قسم عماد الدين خليل روايته على أسماء أربعة شخصيات تناوبت عملية السرد، وكانت تلك الأسماء بمثابة عتبات لعتبة الرواية (السيف والكلمة)، فقد جعلها تتحدث بضمير المتكلم والفعل المضارع، في إشارة لا تخفى على مضمون الرواية الذي يصف ما يجري من وقائع تبدأ من نهاية الرواية الدامية، وجاء الرجوع إلى الماضي وفق نسق مزدوج، فهو إما في شكل ذكريات يستعرضها بعض الأبطال، أو يتولون استحضارها لتفسير سلوكهم.

اكتسب الحدث قيمته ودلالته من خلال وضعه بجوار أحداث ومواقف أخرى وفي مسار حكائي محدد، وهذا ما أطلقنا عليه بسردنة الوقائع التاريخية. ثمّ إن ما يميّز تجربة (السيف والكلمة) ويمنحها فرادتها الخاصة هو اشتباكها سردياً بالتاريخ الإسلامي للأحداث التي عصفت ببغداد أثناء الاحتلال المغولي لها.

هوامش البحث ومراجعه:

١- إشكالية الخطاب التاريخي العربي المعاصر: مفيد الزيدي. مجلة البحرين الثقافية. ع٢١. جويلية ١٩٩٩. ص ٣٣.

٢- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث: قاسم عبده قاسم، إبراهيم أحمد الهواري- دار المعارف – مصر ١٩٧٩ ص٨.

٣- بحوث في الرواية الجديدة: ميشيل بوتور، ترجمة أنطونيوس فريد، ط: ٣، نشر عويدات. بيروت. لبنان، ١٩٨٦، ص: ٥.

٤- الذاكرة، التاريخ، النسيان: بول ريكور، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، بيروت،٢٠٠٩، ص ٣٧٩ .

٥- الرواية والتاريخ: محمد القاضي (دراسات في تخييل المرجعي) دار المعرفة للنشر، تونس، ٢٠٠٨ ص٢٣-٢٤

٦- الرواية وتأويل التاريخ(نظرية الرواية والرواية العربية): فيصل دراج، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، الدار البيضاء،٢٠٠٤ ص ١٣٣ .

٧- الرواية التاريخية وتمثل الواقع: عبد اللطيف محفوظ، مجلة الموقف الأدبي، العدد-٤٣٨لسنة ٢٠٠٧ ص ١٧٦ .

٨- فضاء النص الروائي: محمد عزام، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط١ ، ١٩٩٦ ، ص١٧٨.

٩- السيف والكلمة(رواية): عماد الدين خليل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط١، ٢٠٠٧،ص ٤ .

١٠- السيف والكلمة (رواية): عماد الدين خليل، مصدر سابق/كلمة الناشر.

١١- م . ن :ص ١٧٢.

١٢- م . ن :ص ٢٩٢ .

١٣- من النص الى الفعل: بول ريكور، ترجمة: محمد برادة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الجزائر،ط١،٢٠٠٨، ص ٨.

١٤- الرواية والتاريخ(السرد والمرجع): سعيد يقطين، الملتقى الروائي الثالث الذي عقده المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة خلال الفترة، ٢٤ فبراير و١ مارس ٢٠٠٥.

١٥- السيف والكلمة (رواية): ص١٠٨ .

١٦- م . ن :ص ١٠٩.

١٧- غائية الوجود في الأدب الإسلامي: عماد الدين خليل، muntada.islamtoday.net/t70863.html.